دراسة الزخارف الرمزية على الفخار القديم بالجزائر

د. فريدة عمروس•

الملخص:

تعتبر الفخاريات القديمة أكثر التحف وفرة وانتشارا في المواقع الاثرية وتعتبر هذه الشواهد المادية من أقدم الصناعات التي رافقت الحياة اليومية للإنسان، وعرفت هذه الفخاريات منذ فجر التاريخ زخارف معبرة تمثلت في اشكال ادمية وحيوانية ونباتية. لقد كان تمثيل الطبيعة قويا على معظم الاواني الفخارية لارتباط الانسان في الفترة القديمة بالطبيعة.

كلمات مفتاحية:

زخارف، رموز، فخار قديم، فخار متوسطي، الجزائر.

•محاضر بمعهد الآثار جامعة الجزائرII faridass2@hotmail.com

تعد الفخاريات القديمة من التحف الأكثر وفرة وانتشارا على المواقع الأثرية، وبالخصوص المواقع التي تعود لمرحلتي فجر التاريخ والفترة الرومانية بالجزائر، وتعتبر هذه الشواهد المادية من أقدم الصناعات التي سايرت الحياة اليومية للإنسان.

حيث ظهرت صناعتها لتلبية حاجياته اليومية، وتسهيل حياته المعيشية، فقام بتطويرها وتحسينها عبر العصور باكتسابه تقنيات جديدة تدل على اجتهاده وتطوره الفكري، سواء كان ذلك في طريقة تحضير العجينة وتشكيل الآنية، أو في تحكمه في عملية الحرق.

إن إنجاز بحث حول الزخارف الرمزية على الفخار القديم بالجزائر لم يكن سهلا، نظرا للنقص الفادح في المراجع الخاصة به، وهذا ما شكل لنا عائقا نوعا ما في التوسع أكثر في الموضوع، والوصول إلى مصدر هذه الرسومات.

وتعتبر هذه الفخاريات من أهم الدراسات الأثرية باعتبارها عنصرا أساسيا في تأريخ الموقع الأثري الذي وجدت فيه. ونظرا لطبيعة موضوع البحث حاولنا أن نتعرف أولا على التوزيع الجغرافي لهذا الفخار، ثم أساليب تشكيله، وأقسامه.

كما قمنا بتعريف مختلف أنواع موقع تيديس القديم الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من فخاريات مزخرفة بأشكال مختلفة، ترمز لمواضيع متنوعة، ومحاولة تقاربها برسومات الفخار المعاصر في الجزائر، ونظرا للتشابه الكبير الذي لاحظناه أثناء إنجاز هذا البحث.

ثم تطرقنا إلى رمز المثلث من خلال مجموعات مختلفة الأصل الذي وجدناه مستعملا، في المشرق والمغرب، وعلى كل فخار الحوض الأبيض المتوسط.

أما الإشكالية التي يمكن طرحها هي: متى ظهرت الرسومات الرمزية على الفخار القديم في الجزائر ؟ وما هي أصولها؟

إن التوزيع الجغرافي لفخار فجر التاريخ بالجزائر ساعدنا على فهم طرق صناعته بطريقة أفضل، وأهم عوامل انتشاره هو العامل الجيولوجي ،كونه وجد داخل معالم جنائزية، أغلبيتها تقع ضمن اطار جغرافي واسع يمتد من الجزائر العاصمة إلى غاية الحدود التونسية شرقا، ومن منطقة الشلف إلى غاية مدينة وهران غربا١.

أما العامل الثاني فهو عقائدي نظرا لوجود معظم المقابر بالمرتفعات، فاللجوء إلى الأماكن المرتفعة قد يكون بسبب الاعتقاد بالظواهر الطبيعية (التقرب للشمس مثلا)، كما وجد البعض منها قرب منابع المياه أو الوديان، وقد يكون ذلك لغرض عقائدي أيضا، باعتبار أن الماء مصدر الحياة ورمز الخصوبة، وبعث الحياة من جديد (الحياة

[1]) Camps (G), les berbères aux marges de l'histoire, Ed. Hespérides, Paris 1980, pp 76, 77.

الثانية)، أما العامل الاجتماعي فيكمن في بناء القبور على أراضي غير زراعية فاللجوء إلى هذه الطريقة يضمن لهم الحفاظ على أراضيهم الفلاحية٢.

وتمركزت المقابر التي استخرج منها الفخار بالشرق الجزائري في المواقع التالية: (قسنطينة، قالمة، تبسة...) (خريطة ١).

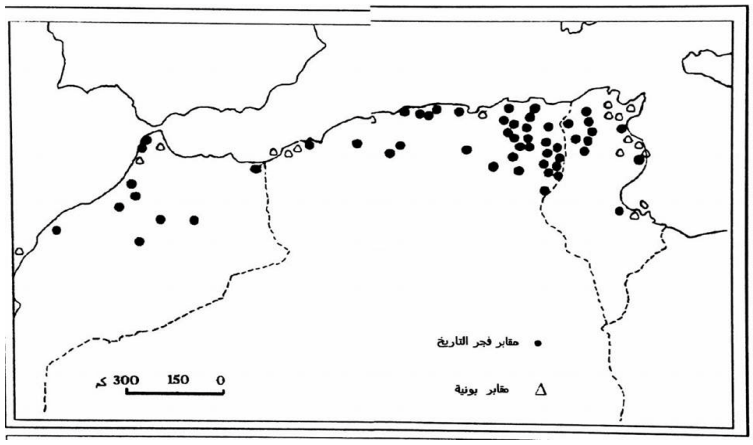

توزيع أهم مقابر فجر التاريخ التي تم العثور فيها على الفخار

Camps (G), Ibid, p : 97

باعتبار أن هذه المنطقة حضارية،يمكن تسميتها بباب المغرب القديم المفتوح على الحضارات الشرقية، حيث كانت هذه المنطقة مركزا حيويا، تجمعت حوله الشعوب ومن ثمة انتشرت الحرف اليدوية.

- أساليب تشكيل فخار فجر التاريخ:

استعملت في تشكيل هذا الفخار تقنيتين، تمثلت الأولى في التشكيل اليدوي المباشر، وهي خاصة بالفخاريات الصغيرة. أما التقنية الثانية فاستعملت فيها لفائف طينية شكلت منها الأواني (Modelage au Colombin).

وقسم هذا الفخار إلى مجموعتين، وذلك حسب دوره العقائدي أولا، ثم حسب شكلها وحجمها٣.

تتمثل المجموعة الأولى في القطع الفخارية الصغيرة (Micro-céramique) المتمثلة في الأقداح والمصابيح.... كان استعمالها عقائدي، وذلك في ممارسة الشعوذة، حيث

٢) Gsell (St), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris 1927, VI, pp : 180-181.

3) Fayolle (V), la poterie modelée du Maghreb oriental, depuis ses origines au XX^{ème}siècle, Morphologie, technologie, Fonction, C.N.R.S, Paris 1992, p.p : 146-147.

أكدت دراسات مخبرية على احتوائها على عطور وسوائل متعلقة بالسحر٤، كما استعملت كأثاث جنائزي.

المجموعة الثانية تمثلت في نماذج وظيفية منزلية كالصحون و الكؤوس... وخصصت أيضا لتقديم القرابين٥. ووجودها داخل المقابر رمزيا، وتمهيدا للحياة الثانية.

لقد لعب التوزيع الجغرافي لهذه المقابر دورا فعالا في تخطيط الرموز والأشكال الموجودة على الفخار، حيث أن مواضيعها مستوحاة من المحيط الموجودة فيه، والذي أثّر على الحياة الإجتماعية بصفة عامة والحياة العقائدية والفكرية بصفة خاصة، كما زين هذا الفخار بزخارف متنوعة ومعبّرة، تمثلت في مواضيع طبيعية، من أشكال نباتية، وآدمية، وأشكال فضائية. وكان تمثيل الطبيعة على هذه الأواني قوي جدا نظرا لارتباط الإنسان القديم بالوسط الذي كان يعيش فيه.

رموز وأشكال الفخار:

إن الزخارف الرمزية الموجودة على الفخار القديم ، شكلت بأساليب مختلفة .

ومن أقدم هذه المجموعات المطلية والمرسومة والمكتشفة بمواقع تعود لفترة فجر التاريخ بالجزائر هي: قاستل Gastel والركنية Roknia وتيديس Tiddis (محفوظة بالمتحف الوطني البارد وبالجزائر العاصمة) لا يتعدى تاريخها القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد. والغريب في الأمر أن الباحثون لم يهتموا بدراسة هذه الرسومات إلاّ حديثا، بالرغم من وجودها في هذا البلد منذ عدة قرون، والتي تعرف رواجا كبيرا في الفخار الأمازيغي المعاصر (الزواوي).

صحيح أن إشكالية بداية ظهور هذه الرسومات لم يتم الاتفاق عليها، مما أدّى إلى ظهور عدة نظريات كانت عرضة للانتقادات، خاصة منهم أعمال الباحثين في علم الإتنوغرافيا. وقد تفاجأ علماء الآثار بعد تعرفهم على الفخاريات المرسومة للمشرق الكلاسيكي، التي تحتوي على نفس أشكال المغرب القديم أي رسومات هندسية مستقيمة، وينفيE.G.Gobert٦ وجود أي وثيقة تثبت الأصل الشرقي لرسومات فخار المغرب القديم، بالإستناد على قانون التقارب إذ يقول "الرسومات الهندسية المستقيمة جاءت بطريقة عفوية في المناطق المتباعدة، عند وصول عدة حضارات إلى نفس

[4]) Camps (G), Aux origines de la berberie, monuments et rites funérairesprotohistorique 1961, p : 518.
[5])Gsell (St), op-cit, p : 219.
[6]) Gobert (E.G), Les poteries modelées du paysan Tunisien, Revue. Tun, 1940, p.62.

درجة التحضر". وبهذا يكون من المستحيل إنشاء تقارب بين الفخاريات الشرقية القديمة وفخاريات بلاد المغرب.

أما بالنسبة للباحث Camps٧، تصبح "نظرية التقارب" إذا فرضها الجانب الإنساني. ما دامت الإنسانية في مرحلة ما قبل التاريخ تتكون من مجموعات منعزلة بدون أي تواصل فيما بينها، لكنها تصبح غير مؤكدة عند ظهور آثار التبادلات بين الشعوب القديمة التي فرضتها الرحلات البحرية (الملاحة).

وبهذا نستنتج أن تواجد الفخاريات ومميزاتها الفنية الحالية ، تدفعنا إلى وضع إشكالية عن أصل الفخار الأمازيغي المغربي وفق أسس جديدة٨.

زينت المزهريات في المغرب القديم بأربعة طرق مختلفة، تتميز بعضها بطلاء أحمر، والبعض الآخر تحمل أشرطة على أرضية حمراء، ثم أشرطة حمراء على أرضية بيضاء، ويركز الباحث على النوع الرابع يتميز برسومات هندسية مركبّة.

مزهريات موقع تيديس (الجزائر) القرن ٢ ق. م:

هذه المجموعة محفوظة بالمتحف الوطني الباردو بالجزائر العاصمة، و هي تشكل طرز مختلفة للمواضيع الزخرفية، مما جعلنا نميز بين أنمط Gastel(منطقة تبسة) وأنواع –Tiddis– (منطقة قسنطينة)، يتميز هذا الأخير بوجود شريط غير متقاطع من المثلثات موجهة نحو الأعلى، غالبا ما تكون مملوءة بأسلوبين أو ثلاثة أساليب متناوبة (تقسيم تربيعي بسيط و شكل شطرنجي)٩.

وتزين المساحات التي تفصل كل مثلث عن الآخر بأشكال مرسومة في الجهة السفلى، والتي لا تأخذ إلاّ نسبة قليلة من المساحة المزينة. الأشكال الأولى سميت بالأشكال الأرضية بسبب استيحائها من الطبيعة، تُذكّرنا بالنخيل والشجيرات المتعددة السيقان (شكل ٠١)، تكون بسيطة أحيانا، الأشكال الأخرى المسماة "بالفضائية أو الجوية" تُذّكر بالعصافير (شكل٠٢) والكواكب (شكل ٠٣) وتمثل المزهريات الأخرى أشكالا آدمية(شكل ٠٤) بالإضافة إلى تمثيل العصافير، والبط أو راقصات (٥).

---

[7]) Camps (G), op-cit, p : 338.

[8]) Fabrer (H), Arts mobiliers dans la préhistoire Nord-Africaine et saharienne, A.M.G, Paris 1966, p : 414.

[9]) Berthier (A), Les bazinas de Tiddis, in libyca, anthropologie – préhistoire, T.IV, 1ere semestre 1956, p : 89.

ويرى الباحث Camps١٠، أن التشابه بين أنواع "تديس" والأشكال التزيينية مثل المثلث والمعيّن الخاص بالفخار المشكل يدويا لمنطقة الزواوة حاليا يثير الدهشة (أنظر الشكل ٠٦).

(شكل ٠١)

(شكل ٠٢)

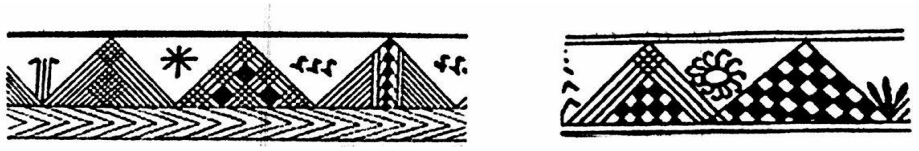

(شكل ٠٣)

(شكل ٠٤)

الأشكال من ١ إلى٤ Camps (G), monuments et rites funéraires protohistorique . Paris 1961

[10]) Camps (G), op-cit, p : 370.

(شكل ٠٥)

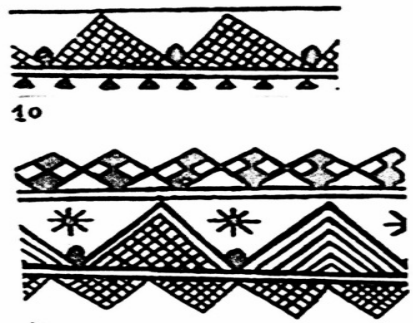

(الشكل ٥-٦ (camps 'G) ibid

(شكل ٠٦)

لأن رسومات مزهريات تيديس سواء كانت تمثل أشكالا آدمية أو حيوانية تعتبر أساس الرسومات المنجزة من طرف الفخارين المعاصرين. وبدليل أن مجموعة العناصر الزخرفية وردت على التحف الفخارية (القديمة الصنع أو الحديثة) تؤكد التشابه الكبير في المواضيع وطريقة الإنجاز وهذا ما يثبت تواصل واستمرارية هذه الصناعة١١. (شكل ٠٧-٠٨)

[11] MOREAU (J.B), Les grands symboles méditerranéens dans la poterie Algérienne, Alger 1970. P 37.

١-عنصر من زخرفة لمزهرية بتديس، تعود لحوالي القرن ٢ ق.م)

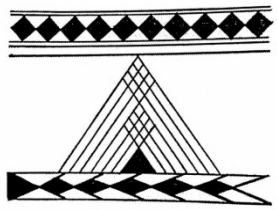

(شكل ٧)

٢-زخرفة مماثلة تقريبا، على مزهريات مشكلة بمدينة ميلة (قسنطينة) ١٩٦٥.

(شكل ٨)

-زخرفة على مزهريات تيديس المعروضة بالمتحف الوطني الباردو بالجزائر، تمثل مثلثات موزعة على شكل لعبة الشطرنج،الى جانب أراضي محروثة ومرفقة برموز شمسية ونباتية (شكل ٩) (الأشكال ٧ و ٨ و٩ للباحث كامبس).

(شكل ٩)

الأشكال من ٧ إلى٩ Moreau (Jb) les grands symboles méditéranéens dans la poterie Algérienne. Alger 1976

بعض الأمثلة عن رموز الفخار المعاصر (معاتقة وجميلة بالجزائر):

-قدح حليب بجميلة: نلاحظ عليه مثلثات متتالية تعبر عن الأرض وتمثل الفصول الأربعة، وهي بالتتابع بدءا من اليمين على النحو التالي:

١-الخريف موسم الحرث (أداة الحرث مزينة بأسهم تضرب أسفل المثلث).

٢-فصل الشتاء، الإنبات الداخلي المتمثل في ثعبان على شكل خط منكسر يرمز إلى البرق الخصب الجالب للأمطار.

٣-فصل الربيع، ظهور النباتات (على شكل أوراق مفتوحة، أسفل المثلث).

٤-فصل الصيف، ظهور السنبلة الصغيرة أسفل المثلث١٢ (شكل ١٠).

(شكل ١٠)

Moreau (Jb) ibid

[12]) Ibid, p : 64.

رمز للبيت المزدهر بمعاتقة: (شكل ١١)

يتوسط الموضوع الزخرفي أربعة خطوط تمثل أخاديد الحقول، أما النقاط التي حولها تمثل البذور، ونجد شريطين من نفس الزخرفة على حافة الصحن، و المقبض والجهة المقابلة له، مؤطرة بزخرفتان شمسيتان ترمزان الى أم محاطة بأبنائها مثل الشمس المحاطة بالكواكب، ومن بين هذه الرموز يظهر ثعبانين على شكل خط منكسر. وأخيرا يحيط بالزخرفة المركزية زهيرات تتموج المياه المغذية١٣. وهذه الزخرفة ترمز الى البيت المزدهر أين يكون فيه الأم رمز للمياه المغذية يحوم حولها أطفالها كسيدة في بيتها١٤.

المثلثات:(دلالاتها وإنتشارها)

الأشكال المثلثة ليست استثنائية، بل نجدها كذلك في الفخار الكالكوليتي"Chalcolithique" بإيران وبلاد الرافدين، وفخار بحر إيجا في بداية عصر الحديد١٥.وفي كل بلدان حوض المتوسط.

وهويرمز إلى الأرض، والظواهر الكونية الخاصة بالخصوبة، استمر وجوده في المغرب القديم منذ القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد إلى يومنا هذا ونجده منتشرا بكثرة خاصة في حوض البحر المتوسط . والرموز المتمثلة في السهام، ورأس ثور، وصنارة مزدوجة ذات قضيب وسطي والذي يعطي عند تقلصه شكل سهم، والتي توجد على رأس المثلث. وكلها لا تزال تستعمل في منطقة الزواوة، (أنظر الأشكال التالية).

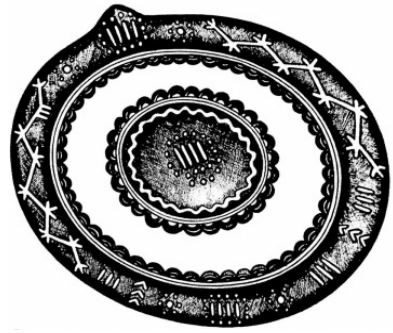

*شكل ١١ Moreau (Jb) ibid

[13]) Moreau (J.B), op-cit, p: .
[14]) Ibid.
[15]) Camps (G), op-cit, p : 381.

١-المثلث أ و ب، استرخاء وانكماش لسهم ذو إتجاهين: رمز للصاعقة المسببة للأمطار الخصبة، ومقطع لذهاب وإياب لأ

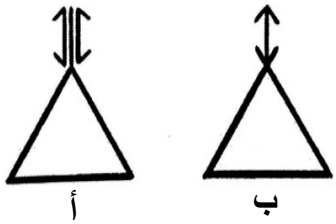

(شكل ١٢)

٢-المثلث جـــ و د، انقباض وارتخاء للأهلّة القمرية التي تشكل عند التقاءها، الدورة الكاملة للأقمار التي تحرك دورة الأمطار الخصبة (شكل١٣).

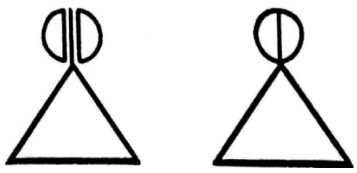

(13)

-المثلث ج، يرمز إلى قرنين الثور، بالإضافة إلى شكل السنبلة التي تظهر في المركز١٦(شكل ١٤).

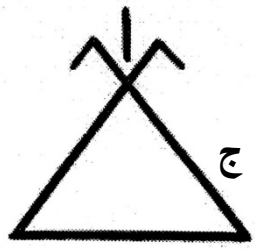

(شكل ١٤)

4-المثلث ح، يرمز الى رأس الثور، بالنسبة للتقاليد المتوسطية تعتبر قرون الثور بديلة للهلال والصاعقة، وكلها ترمز للأمطار والخصوبة (شكل ١٥).

*الأشكال ١٢ إلى ١٤ Moreau (Jb) ibid

[16]) Moreau, op.cit , p : 33.

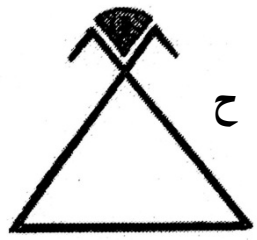

(شكل ١٥)

ويوجد تواصل ملحوظ للتعابير الرمزية للشعوب الزراعية المتوسطية، من بلاد الرافدين إلى شمال إفريقيا، مرورا بأوروبا الجنوبية. وظهرت منذ آلاف السنين، ونقلت لنا هاته التعابير الرمزية عبر الفن الأمازيغي وذلك عن طريق الفخّار والنسيج كذلك.

ويمكننا ذكر بعض الرموز على الفخاريات، التي ما تزال حيةإلى يومنا هذا، و هي متنوعة ومتعددة لكنها تدور حول موضوع واحد، وتسمح لنا بإدراك أن الإنسان يفكر بنفس الطريقة عبر كل العصور، ونرى ذلك مثلا في شعار الخصوبة، يرمز لها بقرون الجدي كبديل للهلال ، وفأس مزدوج تتوج مثلث١٧ (انظر الأشكال التالية للباحث مور).

١-بولادا (إيطاليا) عصر البرونز – (شكل ١٦).

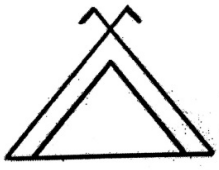

(شكل ١٦)

*الأشكال ١٥ إلى ١٧ Moreau (Jb) ibid

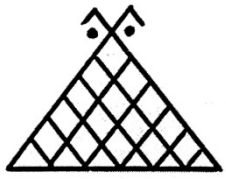

2-تيب جيان (إيران) عصر البرونز الميزوبوتامي - (شكل ١٧)

(شكل ١٧)

[17]) Moreau (J.B), op-cit, p: 34.

٣-معاقة (الجزائر) معاصر ١٩٦٥ - (شكل ١٨).

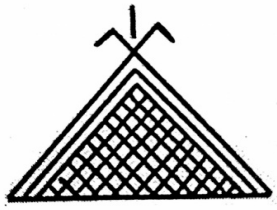

(شكل ١٨)

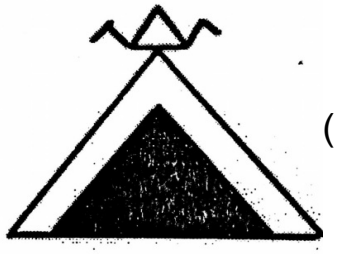

٤-أولاد سيدي عابد (تونس)، فترة معاصرة– (شكل ١٩)

(شكل ١٩)

٥-فيلاريكو (الإيبيرية) وسان ميقال (إسبانيا) القرن ٢ ق.م – (شكل ٢٠).

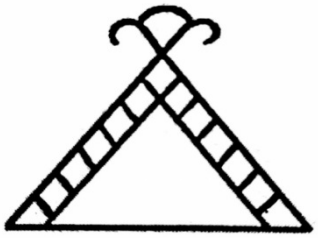

(شكل ٢٠)

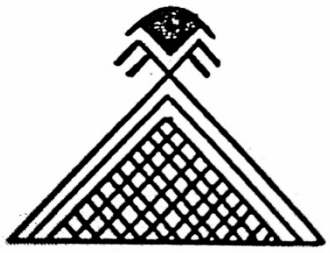

٦-معاقة (الجزائر)فترة معاصرة– (شكل ٢١).

*الأشكال ١٨ إلى ٢١ Moreau (Jb) ibid

(شكل ٢١)

7-سان ميقال دي ليريا (إسبانيا) القرن ٢ ق.م – (شكل ٢٢)

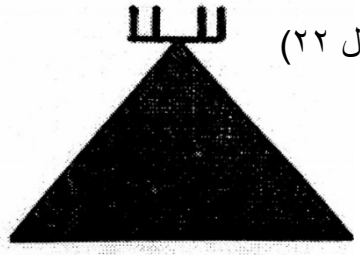

(شكل ٢٢)

.

8-واد الصومام (الجزائر)فترة معاصرة– (شكل ٢٣).

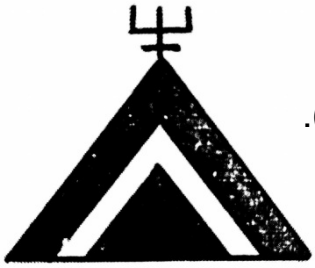

(شكل ٢٣)

9-معاتقة (الجزائر) معاصر (الهلال، القرون.....) – (شكل ٢٤)

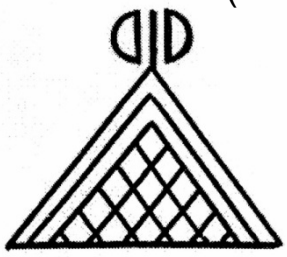

(شكل ٢٤)

*الأشكال ٢٢ إلى ٢٤ Moreau (Jb)ibid

10-قرطاجة (تونس)، القرن ٤ ق.م، مقر للآلهة تانيت (أشتار) قرون مبسطة وقرص قمري – (شكل ٢٥)١٨.

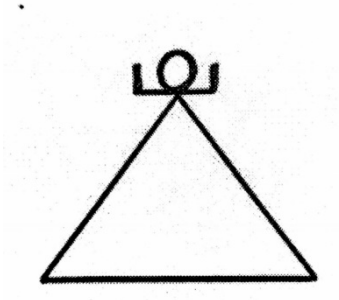

(شكل ٢٥)

*شكل ٢٥ Moreau (JB)ibid

بناءا على ماتقدم، يمكن اعتبار هذا الفخار شاهد أساسي ودليل مادي، يعكس حقيقة الحياة الاجتماعية للإنسان القديم عامة، وإنسان فجر التاريخ بالجزائر خاصة.

ودراسة الزخارف الرمزية على الصناعات الفخارية، هو محاولة لتقديم فكرة عن التطور الفكري الذي وصل إليه هذا الإنسان في مجالات متعددة، منها الحياة الروحية والعقائدية، والاهتمام الكبير لهذه المجتمعات بممارسة الزراعة التي تشكل المورد الأساسي لحياتهم، والمجسدة تقريبا على كل الأواني الفخارية القديمة الصنع و الحديثة.

ورغم تشابه الزخارف الشرقية مع رسومات الفخار الجزائري القديم، فلا يوجد أي دليل يثبت الأصل المشرقي لهذه الفخاريات سواء كانت قديمة أو حديثة، وهذه الأشكال الهندسية المنتشرة عبر حوض البحر المتوسط جاءت بطريقة عفوية، في بداية الأمر ثم تطورت عن طريق الاحتكاك الحضاري الواسع بين شعوب البحر المتوسط.

أما بالنسبة "لمصدر التشكيلة الجمالية" فهي تعود إلى فترة قديمة، لكن تلي عصر الفن الطبيعي النيوليتيني، و قد يكون ظهورها متزامنا مع إسهامات الإنسان المتوسطي، وتطوّر العلاقات بين شبه جزر ،والجزر الكبرى لغرب البحر المتوسط، بينما تبدأ أول الرحلات للبحارة الوافدين من بلاد المشرق.

واستمرت نفس الرموز على هذه الصناعات اليدوية منذ القرن الثاني قبل الميلاد إلى غاية يومنا هذا

[18]) Ibid, p : 35.

المراجع:

1. Berthier (A), Les bazinas de Tiddis, in libyca, anthropologie, préhistoire, t.iv, 1ere semestre, 1956.

2. Camps (G), Les berbères au marge de l'histoire, Ed Hespérides, Paris 1980.

3. Camps (G), Aux origines de la berbérie Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris 1961.

4. Fabrer (H), Arts, mobiliers dans la préhistoire nord-africaine et saharienne, A M G, Paris 1966.

5. Fayolle (V), La poterie modelée du Maghreb oriental, depuis ses origines au XXeme siècle, Morphologie, technologie, Fonction, C.N.R.S , Paris, 1992.

6. Gobert (E.G), les poteries modelées du paysan Tunisien, in Revue, Tun. 1940.

7. Gsell (St), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris 1927.

8. Moreau (J.B), Les grands symboles méditerranéens dans la poterie algérienne, Alger 1976.

The symbolic decorations on the old pottery in Algeria

Dr. Farida Amrous•

Abstract:

Ancient pottery artifacts are more abundant and widespread in the archeological sites, and considered the oldest industries that accompanied the daily life of the human being, human and animal and vegetarian forms are represented in pottery since the dawn of history. The representation of the nature in most of pottery was strong because of the link between the human being and nature in the ancient period.

• **lecturer -A-Archaeology institute university - Algiers II** faridass2@hotmail.com